الباب الأول

نشأة اللغة وتاريخها

نشأة اللغات

من آيات الله التي لفت الانتباه إليها –سبحانه وتعالى- في كتابه العزيز تعدد لغات الناس وألسنهم،رغم أن أصلهم واحد،وأبوهم آدم عليه السلام.

قال تعالى:(ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالِمين) فكيف نشأت تلك اللغات؟ وتفرعت كل ذلك التفرع؟ وما هي اللغة الأم للبشرية؟ وكم عددها الآن الرئيسي منها وغير الرئيسي؟ وهل تتغير اللغات وتتطور؟ وهل ينقرض البعض منها؟ وكيف يتعلم الإنسان الكلام بلغته؟ وما أسباب التشابه في كثير من الكلمات في بعض اللغات؟ وكيف ولدت اللغة العربية؟ وهل تطورت عن الوضع الذي ولدت به؟وما مكانة اللغة العربية الآن بين اللغات عند علماء دراسة اللغات؟ وبماذا تتميز هذه اللغة عما سواها؟

ضرورة اللغة

اللغة فكر ناطق،والتفكير لغة صامتة واللغة هي معجزة الفكر الكبرى كما أن للغة قيمة جوهرية كبرى في حياة كل أمة فإنها الأداة التي تحمل الأفكار،وتنقل المفاهيم فتقيم بذلك روابط الاتصال بين أبناء الأمة

الواحدة ،وبها يتم التقارب والتشابه والانسجام بينهم كما أن القوالب اللغوية التي توضع فيها الأفكار، والصور الكلامية التي تصاغ فيها المشاعر والعواطف لا تنفصل مطلقاً عن مضمونها الفكري والعاطفي .

إن اللغة هي الترسانة الثقافية التي تبني الأمة وتحمي كيانها وقد قال فيلسوف الألمان فيخته اللغة تجعل من الأمة الناطقة بها كلاً متراصاً خاضعاً لقوانين إنها الرابطة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان ويقول الراهب الفرنسي جريجوار : إن مبدأ المساواة الذي أقرته الثورة يقضي بفتح أبواب التوظف أمام جميع المواطنين، ولكن تسليم زمام الإدارة إلى أشخاص لا يحسنون اللغة القومية يؤدي إلى محاذير كبيرة، وأما ترك هؤلاء خارج ميادين الحكم والإدارة فيخالف مبدأ المساواة، فيترتب على الثورة أن تعالج هذه المشكلة معالجة جدية؛ وذلك بمحاربة اللهجات المحلية، ونشر اللغات الأجنبية بين جميع المواطنين .

ويقول فوسلر : إن اللغة القومية وطن روحي يؤوي من حُرِمَ وطنَه على الأرض ويقول مصطفى صادق الرافعي إن اللغة مظهر من مظاهر التاريخ، والتاريخ صفة الأمة كيفما قلّبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الأمة واتصال الأمة بها وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة من تاريخها

أهمية اللغة العربية

لقد حمل العرب الإسلام إلى العالم، وحملوا معه لغة القرآن العربية واستعربت شعوب غرب آسيا وشمال أفريقية بالإسلام فتركت لغاتها الأولى وآثرت لغة القرآن، أي أن حبهم للإسلام هو الذي عربهم، فهجروا ديناً إلى دين، وتركوا لغة إلى أخرى ولقد شارك الأعاجم الذين دخلوا الإسلام في عبء شرح قواعد العربية وآدابها للآخرين فكانوا علماء النحو والصرف والبلاغة بفنونها الثلاثة المعاني ، والبيان ، والبديع وقد مر دهر طويل كانت اللغة العربية هي اللغة الحضارية الأولى في العالم واللغة العربية أقدم اللغات التي ما زالت تتمتع بخصائصها من ألفاظ وتراكيب وصرف ونحو وأدب وخيال، مع القدرة علي التعبير عن مدارك العلم المختلفة ونظراً لتمام القاموس العربي وكمال الصرف والنحو فإنها تعد أمّ مجموعة من اللغات تعرف باللغات الأعرابية أي التي نشأت في شبه جزيرة العرب ،أو العربيات من حميرية وبابلية وآرامية وعبرية وحبشية،أو الساميات في الاصطلاح الغربي وهو مصطلح عنصري يعود إلى أبناء نوح الثلاثة سام وحام ويافث فكيف ينشأ ثلاثة أخوة في بيت واحد ويتكلمون ثلاث لغات ؟

إن اللغة العربية أداة التعارف بين ملايين البشر المنتشرين في آفاق الأرض،وهي ثابتة في أصولها وجذورها، متجددة بفضل ميزاتها

وخصائصها والأمة العربية أمة بيان، والعمل فيها مقترن بالتعبير والقول، فللغة في حياتها شأن كبير وقيمة أعظم من قيمتها في حياة أي أمة من الأمم وهي الأداة التي نقلت الثقافة العربية عبر القرون، وعن طريقها وبواسطتها اتصلت الأجيال العربية جيلاً بعد جيل في عصور طويلة، وهي التي حملت الإسلام وما انبثق عنه من حضارات وثقافات، وبها توحد العرب قديماً وبها يتوحدون اليوم ويؤلفون في هذا العالم رقعة من الأرض تتحدث بلسان واحد وتصوغ أفكارها وقوانينها وعواطفها في لغة واحدة على تنائي الديار واختلاف الأقطار وتعدد الدول واللغة العربية أداة الاتصال ونقطة الالتقاء بين العرب وشعوب كثيرة في هذه الأرض أخذت عن العرب جزءاً كبيراً من ثقافتهم واشتركت معهم - قبل أن تكون الأونيسكو والمؤسسات الدولية - في الكثير من مفاهيمهم وأفكارهم ومثلهم، وجعلت الكتاب العربي المبين ركناً أساسياً من ثقافتها، وعنصراً جوهرياً في تربيتها الفكرية والخلقية .

إن الجانب اللغوي جانب أساسي من جوانب حياتنا، واللغة مقوم من أهم مقومات حياتنا وكياننا، وهي الحاملة لثقافتنا ورسالتنا والرابط الموحد بيننا والمكون لبنية تفكيرنا، والصلة بين أجيالنا، والصلة كذلك بيننا وبين كثير من الأمم .

إن اللغة من أفضل السبل لمعرفة شخصية أمتنا وخصائصها، وهي الأداة التي سجلت منذ أبعد العهود أفكارنا وأحاسيسنا وهي البيئة الفكرية

التي نعيش فيها، وحلقة الوصل التي تربط الماضي بالحاضر بالمستقبل إنها تمثل خصائص الأمة، وقد كانت عبر التاريخ مسايرة لشخصية الأمة العربية، تقوى إذا قويت،وتضعف إذا ضعفت ولقد غدت العربية لغة تحمل رسالة إنسانية بمفاهيمها وأفكارها،واستطاعت أن تكون لغة حضارة إنسانية واسعة اشتركت فيها أمم شتى كان العرب نواتها الأساسية والموجهين لسفينتها، اعتبروها جميعاً لغة حضارتهم وثقافتهم فاستطاعت أن تكون لغة العلم والسياسة والتجارة والعمل والتشريع والفلسفة والمنطق والتصوف والأدب والفن واللغة من الأمة أساس وحدتها، ومرآة حضارتها، ولغة قرآنها الذي تبوأ الذروة فكان مظهر إعجاز لغتها القومية .

إن القرآن بالنسبة إلى العرب جميعاً كتاب لبست فيه لغتهم ثوب الإعجاز، وهو كتاب يشد إلى لغتهم مئات الملايين من أجناس وأقوام يقدسون لغة العرب، ويفخرون بأن يكون لهم منها نصيب وأورد هنا بعض الأقوال لبعض العلماء الأجانب قبل العرب في أهمية اللغة العربية يقول الفرنسي أرنست رينان اللغة العربية بدأت فجأة على غاية الكمال، وهذا أغرب ما وقع في تاريخ البشر، فليس لها طفولة ولا شيخوخة .

ويقول الألماني فريتاج اللغة العربية أغنى لغات العالم ويقول وليم ورك إن للعربية ليناً ومرونةً يمكنانها من التكيف وفقاً لمقتضيات العصر

ويقول الدكتور عبد الوهاب عزام العربية لغة كاملة محببة عجيبة، تكاد تصور ألفاظها مشاهد الطبيعة، وتمثل كلماتها خطرات النفوس، وتكاد تتجلى معانيها في أجراس الألفاظ، كأنما كلماتها خطوات الضمير ونبضات القلوب ونبرات الحياة ويقول مصطفى صادق الرافعي إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية، فلا يزال أهله مستعربين به، متميزين بهذه الجنسية حقيقةً أو حكماً ويقول الدكتور طه حسين إن المثقفين العرب الذين لم يتقنوا لغتهم ليسوا ناقصي الثقافة فحسب، بل في رجولتهم نقص كبير ومهين أيضاً.

خصائص اللغة العربية

للعربية خصائص كثيرة يضيق المجال عن حصرها، لذا سأقتصر على بعضها تاركاً، لمن أراد التوسع، الرجوع إلى أمهات الكتب في هذا المجال .

١ – الخصائص الصوتيـة :

إن اللغة العربية تملك أوسع مدرج صوتي عرفته اللغات، حيث تتوزع مخارج الحروف بين الشفتين إلى أقصى الحلق وقد تجد في لغات أخرى غير العربية حروف أكثر عدداً ولكن مخارجها محصورة في نطاق أضيق ومدرج أقصر، كأن تكون مجتمعة متكاثرة في الشفتين وما والاهما من

الفم أو الخيشوم في اللغات الكثيرة الغنة الفرنسية مثلاً،وتجدها متزاحمة من جهة الحلق وتتوزع هذه المخارج في هذا المدرج توزعاً عادلاً يؤدي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات ويراعي العرب في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة وتوزعها وترتيبها فيها حدوث الانسجام الصوتي والتآلف الموسيقي فمثلاً لا تجتمع الزاي مع الظاء والسين والضاد والذال ولا تجتمع الجيم مع القاف والظاء والطاء والغين والصاد، ولا الحاء مع الهاء، ولا الهاء قبل العين، ولا الخاء قبل الهاء ، ولا النون قبل الراء ، ولا اللام قبل الشين .

وأصوات العربية ثابتة على مدى العصور والأجيال منذ أربعة عشر قرناً ولم يُعرف مثل هذا الثبات في لغة من لغات العالم في مثل هذا اليقين والجزم والتشويه الذي طرأ على لفظ الحروف العربية في اللهجات العامية قليل محدود، وهذه التغيرات مفرقة في البلاد العربية لا تجتمع كلها في بلد واحد وهذا الثبات،على عكس اللغات الأجنبية، يعود إلى أمرين القرآن، ونزعة المحافظة عند العرب وللأصوات في اللغة العربية وظيفة بيانية وقيمة تعبيرية، فالغين تفيد معنى الاستتار والغَيْبة والخفاء كما نلاحظ في : غاب ، غار ، غاص ، غال ، غام والجيم تفيد معنى الجمع : جمع ، جمل، جمد ، جمر وهكذا .

وليست هذه الوظيفة إلا في اللغة العربية ، فاللغات اللاتينية مثلاً ليس بين أنواع حروفها مثل هذه الفروق، فلو أن كلمتين اشتركتا في جميع الحروف لما كان ذلك دليلاً على أي اشتراك في المعنى فعندنا الكلمات التالية في الفرنسية مشتركة في أغلب حروفها وأصواتها ولكن ليس بينها أي اشتراك في المعنى Ivre سكران oeuvre أثر أو تأليف ouvre يفتح livre كتاب lèvre شفة .

٢ – الاشتـقـاق :

الكلمات في اللغة العربية لا تعيش فرادى منعزلات بل مجتمعات مشتركات كما يعيش العرب في أسر وقبائل وللكلمة جسم وروح، ولها نسب تلتقي مع مثيلاتها في مادتها ومعناها كتب ـ كاتب ـ مكتوب ـ كتابة ـ كتاب فتشترك هذه الكلمات في مقدار من حروفها وجزء من أصواتها وتشترك الألفاظ المنتسبة إلى أصل واحد في قدر من المعنى وهو معنى المادة الأصلية العام أما اللغات الأخرى كالأوروبية مثلاً فتغلب عليها الفردية فمادة (ب ن و) في العربية يقابلها في الإنكليزية : son ابن و daughter بنت أما في الفرنسية فتأتي مادة (ك ت ب) على الشكل التالي : كتاب livre مكتبة عامة bibliothèque محل بيع الكتب librairie يكتب écrire مكتب bureau .

وثبات أصول الألفاظ ومحافظتها على روابطها الاشتقاقية يقابل استمرار الشخصية العربية خلال العصور، فالحفاظ على الأصل واتصال الشخصية واستمرارها صفة يتصف بها العرب كما تتصف بها لغتهم، إذ تمكن خاصية الاشتقاق من تمييز الدخيل الغريب من الأصيل .

إن اشتراك الألفاظ ، المنتمية إلى أصل واحد في أصل المعنى وفي قدر عام منه يسري في جميع مشتقات الأصل الواحد مهما اختلف العصر أو البيئة،يقابله توارث العرب لمكارم الأخلاق والمثل الخلقية والقيم المعنوية جيلاً بعد جيل كما أن وسيلة الارتباط بين أجيال العرب هي الحروف الثابتة والمعنى العام وروابط الاشتقاق نوع من التصنيف للمعاني في كلياتها وعمومياتها، وهي تعلم المنطق وتربط أسماء الأشياء المرتبطة في أصلها وطبيعتها برباط واحد، وهذا يحفظ جهد المتعلم ويوفر وقته .

إن خاصة روابط الاشتقاق في اللغة العربية تهدينا إلى معرفة كثير من مفاهيم العرب ونظراتهم إلى الوجود وعاداتهم القديمة، وتوحي بفكرة الجماعة وتعاونها وتضامنها في النفوس عن طريق اللغة.

٣ – خصائص الكلمة العربية الشكل والهيئة أو البناء والصيغة أو الوزن
إن صيغ الكلمات في العربية هي اتحاد قوالب للمعاني تُصبُّ فيها الألفاظ فتختلف في الوظيفة التي تؤديها فالناظر والمنظور والمنظر تختلف في

مدلولها مع اتفاقها في أصل المفهوم العام الذي هو النظر الكلمة الأولى فيها معنى الفاعل والثانية المفعول والثالثة المكانية وللأبنية والقوالب وظيفة فكرية منطقية عقلية ولقد اتخذ العرب في لغتهم للمعاني العامة أو المقولات المنطقية قوالب أو أبنية خاصة الفاعلة ـ المفعولة ـ المكان ـ الزمان ـ السببية ـ الحرفة ـ الأصوات ـ المشاركة ـ الآلة ـ التفضيل ـ الحدث .

إن الأبنية في العربية تعلم تصنيف المعاني وربط المتشابه منها برباط واحد، ويتعلم أبناء العربية المنطق والتفكير المنطقي مع لغتهم بطريقة ضمنية طبيعية فطرية وللأبنية وظيفة فنية، فقوالب الألفاظ وصيغ الكلمات في العربية أوزان موسيقية، أي أن كل قالب من هذه القوالب وكل بناء من هذه الأبنية ذو نغمة موسيقية ثابتة فالقالب الدال على الفاعلية من الأفعال الثلاثية مثلاً هو دوماً على وزن فاعل والدال على المفعول من هذه الأفعال على وزن مفعول .

وإن بين أوزان الألفاظ في العربية ودلالاتها تناسباً وتوافقاً، فصيغة فعّال لمبالغة اسم الفاعل تدل بما فيها من تشديد الحرف الثاني على الشدة أو الكثرة، وبألف المد التي فيها على الامتداد والفاعلية الخارجية وتتميز اللغة العربية بالموسيقية فجميع ألفاظها ترجع إلى نماذج من الأوزان الموسيقية، والكلام العربي نثراً كان أم شعراً هو مجموع من الأوزان ولا يخرج عن أن يكون تركيباً معيناً لنماذج موسيقية وقد استثمر الشعراء

والكتاب العرب هذه الخاصية الموسيقية فقابلوا بين نغمة الكلام وموضوعه مقابلة لها أثر من الوجهة الفنية حيث ينقلك إلى جو عاشق يهيم ويتأمل وتهفو نفسه برقة وحنان إلى آثار الحبيب بما في البيت من نعومة الحروف وكثرة المد وحسن توزعها وجمال تركيب الألفاظ وكان لأوزان الألفاظ أثر في جمال الكتابة العربية، فالكلمات التي على وزن واحد تتشابه ألفاظها الكتابية مثل الكلمات على وزن فاعل أو على وزن مفعول إن هذه الكلمات في التركيب يكون منها ما يشبه الزخارف العربية وتتأرجح الصيغ بين الثبات والتطور، والثبات غالب ولا يسبب هذا جمود العربية، فإن لها على حالتها الحاضرة من الصيغ والأبنية غنى لا تضارعها فيه لغة أخرى من اللغات الراقية التي تفي بحاجات الإنسان في مثل هذا العصر والإخلال بهذه الأبنية وإفسادها إفساد لنظام اللغة، فلذلك كان العرب إذا أدخلوا كلمة أعجمية احتاجوا إليها صاغوها على نماذج ألفاظهم وبنوها على أحد أبنيتهم وجعلوها على أحد أوزانهم .

وبين العربية والطبيعة صلة وثقى، فالأجسام في الطبيعة على كثرتها ترجع إلى عناصر بسيطة محدودة العدد تتشابه وتختلف بحسب تشابه تركيب مادتها واختلافه وكذلك اللغة العربية ترجع كلماتها التي لا تكاد تحصى إلى عناصر محدودة ثابتة هي الحروف وفي الطبيعة تشابه ونمطية وتكرر، فللشجرة مهما كان نوعها أوراق وأغصان جذع وثمر وفي اللغة أيضاً تشابه بين أبنية الفاعلين والمفعولين والمكان والزمان

ولكل فرد من أفراد الجنس الواحد في الطبيعة ذاتيته مع مشابهته لسائر أفراد الجنس وكذلك للفظ ذاتيته مع مشابهته لسائر الألفاظ المشتركة معه في الأصل أو البناء والصيغة وفي الطبيعة تسلسل وتوارث يقابله تسلسل وتوارث في اللغة وفي الطبيعة محافظة وتجديد، وكذلك في اللغة محافظة وتجديد أيضاً .

٤ – التعريب :

يتشابه نظام العربية مع نظام المجتمع العربي فكما يرتبط أفراد المجتمع العربي وقبائله بصلات القربى والنسب والتضامن والتعاون، ترتبط ألفاظها في نسق خاص في حروفها وأصواتها، ومادتها وتركيبها ، وهيئتها وبنائها وحين يدخل غريب على المجتمع فلا بد لـه لكي يصبح عضواً فيه من أن يلتزم بأخلاقه وعاداته، فكذلك اللفظة الأعجمية إذا دخلت يجب أن تسير على أوزان العربية وهيئاتها وصيغها لكي تصبح عضواً كامل العضوية في الأسرة اللغوية ويُستعمل في العربية مصطلح التعريب بينما في اللغة الأجنبية استعارة emprunt والتعريب أحد مظاهر التقاء العربية بغيرها من اللغات على مستوى المفردات وكانت الألفاظ الدخيلة في العصر الجاهلي قليلة محدودة تتصل بالأشياء التي لم يعرفها العرب في حياتهم وهي محصورة في ألفاظ تدل على أشياء مادية لا معنوية مثل : كوب - مسك - مرجان - درهم وتعود قلة الدخيل إلى

سببين انغلاقهم على أنفسهم واعتدادهم بأنفسهم وبلغتهم أما بعد الإسلام فقد اتصلت العربية باللغات الأخرى فانتقلت إليها ألفاظ جديدة تتعلق كلها بالماديات مثل أسماء الألبسة والأطعمة والنباتات والحيوان وشئون المعيشة أو الإدارة وقد انعدم التأثير في الأصوات والصيغ والتراكيب .

إن هذا الداخل على الغالب لم يبق على حاله بل صيغ في قالب عربي، ولذلك كانت المغالاة والإكثار من الغريب وفسح المجال من غير قيد مظهراً من مظاهر النـزعة الشعبية في الميدان اللغوي قديماً وحديثاً وكانت طريقة العرب في نقل الألفاظ الأجنبية أو التعريب تقوم على أمرين :

أ – تغيير حروف اللفظ الدخيل، وذلك بنقص بعض الحروف أو زيادتها مثل : برنامه برنامج

ب – تغيير الوزن والبناء حتى يوافق أوزان العربية ويناسب أبنيتها فيزيدون في حروفه أو ينقصون، ويغيرون مده وحركاته، ويراعون بذلك سنن العربية الصوتية كمنع الابتداء بساكن، ومنع الوقوف على متحرك ، ومنع توالي ساكنين وأكثر ما بقي على وزنه وأصله من الألفاظ هو من الأعلام : سجستان – رامهرمز أما دليلهم إلى معرفة الدخيل فهو إحدى ثلاث طرق : فقدان الصلة بينه وبين إحدى مواد الألفاظ العربية : بستان : ليس في العربية مادة بست – أن يجتمع فيه من الحروف ما لا يجتمع

في الكلمة العربية :ج ق جوسق – ج ص جَصّ – ج ط طازج – أن تكون على وزن ليس في العربية :إِبْرَيْسَم إفعيلل – آجر فاعُلّ

٥ – خصائص معاني الألفاظ العربية :تقوم طريقة العربية في وضع الألفاظ وتسمية المسميات على الأمور التالية :

أ ـ اختيار صفة من صفات الشيء الذي يراد تسميته أو بعض أجزائه أو نواحيه أو تحديد وظيفته وعمله واشتقاق لفظ يدل عليه .

ب ـ تحتفظ العربية بالمعاني الأصلية الدالة على أمثال هذه المسميات ، فألفاظها معللة على عكس غيرها من اللغات التي لا تحتفظ بهذه المعاني

ج ـ الإشارة إلى أخص صفات المسمى وأبرزها أو إلى عمله الأساسي ووظيفته،على عكس اللغات الأجنبية التي تشير إلى ظاهره وشكله الخارجي أو تركيبه وأجزائه فمثلاً تسمية الدراجة في العربية تشير إلى وظيفتها وعملها وحركتها أما في الفرنسية فإن bicyclette (ذات الدولابين) تشير إلى أجزائها وتركيبها وحالتها الساكنة ومثل ذلك السيارة التي تشير تسميتها إلى عملها بينما في الفرنسية كلمة automobile تعني المتحرك بنفسه.

ويظهر تفكير العرب وحياتهم واضحين جليين في مفردات لغتهم، فكلمة العامل، مثلاً بعد الإسلام، أخذت معنى الوالي والحاكم، وهذا يدل على أن الولاية عمل من الأعمال وليست استبداداً، وأن الحكم تكليف

وليس تشريفاً ولفظ المرأ للمذكر والمرأة للمؤنث يدل على تساوي الرجل والمرأة عندهم في الأصل والمروءة هي الصفات المستحسنة المأخوذة من أخلاق الإنسان ذكراً كان أو أنثى وللغة العربية طريقة في تصنيف الموجودات، فمفرداتها تدل على أن العرب صنفوا الوجود تصنيفاً شاملاً دقيقاً منطقياً يدعو إلى الدهشة والتعجب، ويدل على مستوى فكري قلما وصلت إليه الأمم في مثل هذا الطور المبكر من تاريخ حياتها وهناك ألفاظ تدل على الموجودات بمجموعها مثل العالَم و العالَمين فهي تشتمل على الخلق كله وكذلك الشهادة الحس وعكسه الغيب وتظهر في الألفاظ العربية أنواع الموجودات كالنبات والحيوان. ويتضمن الحيوانُ الإنسانَ والوحوش والطير والسباع والهوامَّ والسوائم والحشراتِ والجوارحَ والبغاث وتظهر أيضاً الأخلاق والمشاعر كالمكارم والمثالب،والمحاسن والمساوئ،والفرح والحزن، والحسيات والمجردات ولم تقتصر العربية على الحسيات كما تقتصر كل لغة في طورها الابتدائي فبالإضافة إلى ما فيها مما لا يكاد يحصى من الألفاظ الدالة على الحسيات لم تهمل المعنويات والمجردات إننا نجد في العربية سعة وغزارة في التعبير عن أنواع العواطف والمشاعر الإنسانية كما أنهها اشتملت على الكلمات الدالة على الطباع والأفعال والمفاهيم الخلقية واشتملت كذلك على المفاهيم الكلية والمعاني المجردة لقد جمع العرب في لغتهم بين الواقعية الحسية والمثالية المعنوية ، فالمادية دليل الاتصال بالواقع ، والتجريد دليل ارتقاء

العقل ولها باع في الدقة والخصوص والعموم، إذ تمتاز برقة تعبيرها والقدرة على تمييز الأنواع المتباينة، والأفراد المتفاوتة، والأحوال المختلفة سواء في ذلك الأمور الحسية والمعنوية فإذا رجعنا إلى معاجم المعاني وجدنا أموراً عجباً فتحت المشي الذي هو المعنى العام أنواع عديدة من المشي : درج حبا حجل خطر دلف هدج رسف اختال تبختر تخلج أهطع هرول تهادى تأود

والأمثلة كثيرة في كتب معاجم المعاني كفقه اللغة للثعالبي وهو مجلد صغير، والمخصص لابن سيده الذي يقع في ١٧جزءاً ومن ضروب الدقة ما يظهر في اقتران الألفاظ بعضها ببعض، فقد خصص العرب ألفاظاً لألفاظ ، وقرنوا كلمات بأخرى ولم يقرنوها بغيرها ولو كان المعنى واحداً فقد قالوا في وصف شدة الشيء ريح عاصف ـ برد قارس ـ حر لافح وفي وصف اللين : فراش وثير ـ ثوب لين ـ بشرة ناعمة ـ غصن لدن وكذلك في الوصف بالامتلاء، والوصف بالجدة، والوصف بالمهارة في الكتابة والخطابة والطب والصنعة ووصف الشيء بالارتفاع الحقيقي أو المجازي وغيرها ولا شك أن هذا التخصص في تراكيب العربية في النعت والإضافة والإسناد نوع من الدقة في التعبير، لأن هذه الألفاظ المخصصة ببعض المعاني والأحوال توحي إلى السامع الصورة الخاصة التي تقترن معها فلفظ باسق يوحي إلى الذهن معنى الارتفاع وصورة الشجرة معاً، كما توحي كلمة وثير معنى اللين وصورة الفراش وكثيراً ما

يحتاج المتكلم إلى أن ينقل إلى مخاطبه هذه المعاني والصور متلازمة مقترنة ليكون أصدق تصويراً وأدق تعبيراً وأقدر على حصر الصورة المنقولة وتحديدها وفي العربية منـزلة للتخصيص والدقة والتعميم، فلا ينطبق عليها وصف الابتدائية لكثرة ما فيها من الألفاظ الدالة على الكليات والمفاهيم والمعاني العامة والمجردة وما فيها من الدقة والتخصيص قرينة على أن أصحابها بلغوا درجة عالية في دقة التفكير ومزية وضوح الذهن وتحديد المقصود والدلالة والمستعرض للشعر الجاهلي يجد نماذج من الوصف تتضمن الجزئيات والتفصيلات في الألوان والأشكال والحركات والمشاعر إلى جانب شعر الحكم الذي يتضمن قواعد عامة في الحياة ومعاني عالية من التعميم والتجريد .

إن دقة التعبير والتخصيص سبيل من سبل تكوين الفكر العلمي الواضح المحدد والتخصيص اللغوي والدقة في التعبير أداة لا بد منها للأديب لتصوير دقائق الأشياء وللتعبير عن الانفعالات والمشاعر والعواطف .

٦ – الإيجـاز : الإيجاز صفة واضحة في اللغة العربية يقول الرسول : أوتيت جوامع الكلم ويقول العرب البلاغة الإيجاز وخير الكلام ما قلّ ودلّ وفي علم المعاني إيجاز قصر وإيجاز حذف .

<u>الإيجاز في الحرف :</u>

والإيجاز في العربية على أنواع ، فمنها الإيجاز في الحرف، حيث تكتب الحركات في العربية عند اللبس فوق الحرف أو تحته بينما في اللغات الأجنبية تأخذ حجماً يساوي حجم الحرف أو يزيد عليه وقد نحتاج في اللغة الأجنبية إلى حرفين مقابل حرف واحد في العربية لأداء صوت معين كالخاء (KH) مثلاً ولا نكتب من الحروف العربية إلا ما نحتاج إليه، أي ما نتلفظ به، وقد نحذف في الكتابة بعض ما نلفظ : لكن- هكذا - أولئك بينما في الفرنسية نكتب علامة الجمع ولا نلفظها، وأحياناً لا تلفظ نصف حروف الكلمة ونكتب في الإنكليزية حروفاً لا يمر اللسان عليها في النطق ، كما في كلمة (right) مثلاً التي نسقط عند النطق بها حرفين من حروفها (gh) نثبتهما في كتابتها وفي العربية إشارة نسميها (الشدة)، نضعها فوق الحرف لندل على أن الحرف مكرر أو مشدد، أي أنه في النطق حرفان، وبذلك نستغني عن كتابته مكرراً، على حين أن الحرف المكرر في النطق في اللغة الأجنبية مكرر أيضاً في الكتابة على نحو ونحن في العربية قد نستغني كذلك بالإدغام عن كتابة حروف بكاملها، وقد نلجأ إلى حذف حروف فنقول ونكتب (عَمَّ) عوضاً عن (عن ما) و (مِمَّ) عوضاً عن (من ما) و (بِمَ) عوضاً عن (بما) ومثلها (لِمَ) عوضاً عن (لِما) .

الإيجاز في الكلمات :

وبمقارنة كتابة بعض الكلمات بين العربية والفرنسية والإنكليزية نجد الفرق واضحاً :وليست العربية كاللغات التي تهمل حالة التثنية لتنتقل من المفرد إلى الجمع، وهي ثانياً لا تحتاج للدلالة على هذه الحالة إلى أكثر من إضافة حرفين إلى المفرد ليصبح مثنى، على حين أنه لا بد في الفرنسية من ذكر العدد مع ذكر الكلمة وذكر علامة الجمع بعد الكلمة : الباب البابان - البابين les deux portes the two doors

الإيجاز في التراكيب :

والإيجاز أيضاً في التراكيب ، فالجملة والتركيب في العربية قائمان أصلاً على الدمج أو الإيجاز ففي الإضافة يكفي أن تضيف الضمير إلى الكلمة وكأنه جزء منها :كتابه son livre كتابهم leur livre

وأما إضافة الشيء إلى غيره فيكفي في العربية أن نضيف حركة إعرابية أي صوتاً بسيطاً إلى آخر المضاف إليه فنقول كتاب التلميذ ومدرسة التلاميذ، على حين نستعمل في الفرنسية أدوات خاصة لذلك فنقول : le livre de l'élève ، l'école des élèves .

وأما في الإسناد فيكفي في العربية أن تذكر المسند والمسند إليه وتترك لعلاقة الإسناد العقلية المنطقية أن تصل بينهما بلا رابطة ملفوظة

أو مكتوبة، فنقول مثلاً أنا سعيد على حين أن ذلك لا يتحقق في اللغة الفرنسية أو الإنكليزية .

وتستعمل هاتان اللغتان لذلك طائفة من الأفعال المساعدة مثل (avoir , être) في الفرنسية و (to have , to be) في الإنكليزية كما أن الفعل نفسه يمتاز في العربية باستتار الفاعل فيه أحياناً، فنقول (أكتب) مقدرين الفاعل المستتر، بينما نحتاج إلى البدء به منفصلاً دوماً مقدماً على الفعل كما هو الأمر في الفرنسية (je-tu...) وفي الإنكليزية (I , you ...) وكذلك عند بناء الفعل للمجهول يكفي في العربية أن تغير حركة بعض حروفه فتقول كُتب على حين نقول بالفرنسية (il a été écrit) وفي الإنكليزية (it was written) .

وفي العربية إيجاز يجعل الجملة قائمة على حرف : فِ (وفى يفي)، و (ع) من وعى يعي، و (ق) من وفى يفي، فكل من هذه الحروف إنما يشكل في الحقيقة جملة تامة لأنه فعل وقد استتر فيه فاعله وجوباً وفي العربية ألفاظ يصعب التعبير عن معانيها في لغة أخرى بمثل عددها من الألفاظ كأسماء الأفعال .

نقول في العربية : هيهات ونقول في الإنجليزية it وحرف الاستقبال مثل : سأذهب والنفي أسلوب في العربية يدل على الإيجاز :العربية : لم أقابله ، الإنجليزية : I did not

الفرنسية : Je ne l’ai pas rencontré والعربية : لن أقابله ، الإنجليزية : I will never meet him والفرنسية : Je ne le rencontrerai jamais

الإيجاز في اللغة المكتوبة :

فمثلاً سورة الفاتحة المؤلفة في القرآن من ٣١ كلمة استغرقت ترجمتها إلى الإنجليزية ٣٧ كلمة ويقول الدكتور يعقوب بكر في كتاب العربية لغة عالمية إذا ترجمنا إلى العربية كلاماً مكتوباً بإحدى اللغات الأوروبية كانت الترجمة العربية أقل من الأصل بنحو الخمس أو أكثر .

مميزات اللغة العربية:

للغة العربية مميزات تميزها عن كل لغات العالم، ويجعلها نعمة حقيقية يتمتع بها العارفون بها والمحبون لها، منها:

١- أنها لغة القرآن الكريم التي اختار –عز وجل- أن ينزل بها آخر كتبه التي سيتعبد به إلى نهاية تاريخ البشرية.

٢- أنها أقل لغات العالم تطورا منذ نزول القرآن الكريم، فلا توجد لغة مر عليها أكثر من ألف عام وما زال أهلها يمكنهم قراءة وفهم نصوصها بسهولة مثلها، وبعدها العبرية.

٣- الإعراب ميزة للغة العربية، حيث يشمل كل المفردات من اسم وفعل

وحرف، ورغم وجود الإعراب في بعض اللغات الأخرى مثل الهندية والعبرية والحبشية والجرمانية والمصرية القديمة، إلا أنه إعراب قاصر ببعض الكلمات دون بعض.

٤- ومن المميزات ضبط الكلمة بالشكل من ضم وفتح وكسر، فكلمة علم -مثلا- يمكن أن تقرأ على سبعة أوجه حسب تشكيلها (عَلِم، عُلِم، عَلَّم، عُلِّم، عَلِّم، عِلم، عَلَم).

أول ظهور للعربية:

لم يعرف على وجه الدقة متى ظهرت كلمة العرب؛ وكذلك جميع المفردات المشتقة من الأصل المشتمل على أحرف العين والراء والباء، مثل كلمات عربية وأعراب وغيرها.

وأقدم نص أثري ورد فيه اسم العرب هو اللوح المسماري المنسوب للملك الآشوري شلمانصر الثالث في القرن التاسع قبل الميلاد، ذكر فيه انتصاره على تحالف ملوك آرام ضده بزعامة ملك دمشق، وأنه غنم ألف جمل من جنديبو من بلاد العرب.

ويذكر البعض -من علماء اللغات- أن كلمة عرب وجدت في بعض القصص والأوصاف اليونانية والفارسية وكان يقصد بها أعراب الجزيرة العربية ولم يكن هناك لغة عربية معينة، لكن جميع اللغات التي تكلمت بها القبائل والأقوام التي كانت تسكن الجزيرة العربية سميت لغات عربية، وهي لغات متطورة من البابلية وغيرها، ومنها لغة عاد وثمود

obeikandl.com

وسواهم، وكانت لغات متقاربة وتتطور حينا بعد حين، وتتغير ومن تلك اللغات القديمة اللغة المهرية المستخدمة حتى الآن في ثمود وسوقطرى ولم تكن تلك اللغات تكتب بالأحرف العربية التي نعرفها الآن، ولكنها مرت بعدة تحولات فمن هم العرب؟

كان لنوح عليه السلام عدة أبناء منهم سام الذي تنتسب إليه كل الشعوب السامية؛ومنهم العرب وكان لسام بن نوح خمسة أبناء وهم:إرم، ولاوذ، وأرفخشذ، وآشور، وعيلام.

والقوم الذين اصطلح لاحقا على تسميتهم عربا، يعودون للأبناء الثلاثة الأوائل وينقسم العرب إلى عرب بائدة وعرب عاربة وعرب مستعربة فأما إرم بن سام فمن نسله جزء من العرب البائدة، وبعض العرب العاربة وأما لاوذ بن سام فمن نسله بعض العرب البائدة وأما أرفخشذ بن سام فمن نسله بعض العرب العاربة وكل العرب المستعربة، ومن أحفاده إبراهيم عليه السلام؛ وجميع أبناءه ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم.

العرب البائدة : وهم العرب الذي كانوا في الجزيرة العربية في السنوات الغابرة ثم بادوا وانتهوا، ومنهم عاد المنتسبين لجدهم عاد بن عوص بن إرم، ويسمون عاد إرم، ومنهم ثمود وجديس وغيرهم من نسل إرم بن سام بن نوح ومن نسل لاوذ بن سام بن نوح العمالقة وطسم وهم أصحاب الرس.

العرب العاربة: ويسمون القحطانية وهم الذي كانت عندهم اللغة العربية القديمة،ومنهم أخذ العدنانيون العربية الحديثة ومنهم سبأ وحمير ومعين وجرهم وهم من نسل عاد الذي يعود نسله لإرم بن سام ومنهم حضرموت وعمان وهم من نسل أرفخشذ بن سام.

فسبأ –مثلا- الذي ينتسب إليه قوم سبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام.

وهود من نسل عاد ونبيهم، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح. وقحطان بن هود هو الذي انتسب له القحطانيون، وقيل أنه أول من تكلم بالعربية، وقيل بل ولده يعرب بن قحطان، وهما جدان لمعظم العرب البائدة والعاربة، فمن أحدهما كان منشأ اللغات العربية القديمة.

وهذه اللغات القديمة التي تطورت عصرا بعد عصر انقسمت إلى قسمين:

أ- لغات عربية جنوبية قديمة:عند أقوام جنوب الجزيرة العربية، مثل المعينية والسبأية والحميرية، وكانت تكتب بالحرف المسند.

ب- لغات عربية شمالية قديمة:عند أقوام شمال الجزيرة العربية، مثل اللغات الثمودية واللحيانية والصفوية، وكانت تكتب بالحرف الثمودي.

ولا يتيسر الآن لأحد منا أن يفهم شيئا من كتابة أولئك القوم سواء باللغة الشمالية أو الجنوبية، إلا بدراسة تلك الحروف والكتابات.

العرب المستعربة: ويسمون العدنانية، وجدهم النبي إسماعيل بن إبراهيم

عليهما السلام، ويرجع نسب إبراهيم إلى أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام وحين أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يترك ولده إسماعيل عليه السلام في ذلك الوادي غير ذي زرع، كان إبراهيم يقوم بغرس العرب العدنانية الذين سيشكلون جزءا من العرب لاحقا.

فعندما نبع ماء زمزم جاء قوم من جرهم القحطانيين فسكنوا مع إسماعيل هناك، وأخذ منهم العربية الجنوبية القديمة التي خلط شيئا منها مع لغة أبيه الكلدانية ثم جاء العماليق وتزوج إسماعيل منهم، ثم تزوج من جرهم، كان له الكثير من الولد، وانتشر نسله وكان من أحفاده –بعد عدة أجيال- رجل اسمه عدنان، إليه ينتسب أبناء إسماعيل وقد تأثرت لغتهم باللغات العربية الشمالية الموجودة حولهم حينئذ ومنها الثمودية واللحيانية تأثرا ظاهرا ونشأ من ذلك التزاوج بين اللغتين العربيتين الجنوبية من جرهم والعماليق والشمالية من الثمودية واللحيانية إضافة للمصطلحات الكلدانية اليسيرة من إبراهيم نشأت اللغة العربية الحديثة التي هي أم اللغة العربية الفصحى وقد استمرت أكثر من ألفي سنة حتى تطورت إلى اللغة العربية الفصحى،بعد أن مرت على سنة التطور والتغير.

مكانة اللغة العربية:

اللغة العربية من اللغات السامية التي شهدت تطورا كبيرا وتغيرا في مراحلها الداخلية وللقرآن الكريم فضل عظيم على اللغة العربية حيث

بسببه أصبحت هذه اللغة الفرع الوحيد من اللغات السامية الذي حافظ على توهجه وعالميته؛ في حين اندثرت معظم اللغات السامية، وما بقي منها غدا لغات محلية ذات نطاق ضيق مثل العبرية والحبشية واللغة العربية يتكلم بها الآن قرابة ٤مليون إنسان كلغة أم، كما يتحدث بها من المسلمين غير العرب قرابة العدد نفسه كلغة ثانية.

ومن تأثير اللغة العربية على محيطها وعلى المسلمين أن هناك عدة لغات أخرى تكتب بالحرف العربي الحديث، ومنها:

أ- في آسيا: الفارسية والأوردية، والكردية، والملايو، والبشتو.

ب- في إفريقيا: الهوسا، والفلانية، والكانوري.

ت- كما توجد لغات بقت سنين عديدة تكتب بذلك الحرف حتى غيرت مؤخرا لأسباب متعددة منها: التركية، والصومالية، والسواحلية.

اللغة الأم للبشرية:

كان اليهود قد أشاعوا عند الناس قبل الاكتشافات الأثرية أن لغتهم العبرانية هي اللغة الأم للناس، وأنها لغة آدم والقرون الأولى، وانتشر هذا الاعتقاد في أوروبا في القرون الوسطى ولما جاءت الاكتشافات الأثرية وتشكل علم اللغات لم تقو تلك الدعوى على الصمود، حيث اكتشفت كتابات بلغات أخرى قبل الزمن الذي دونت فيه التوراة، وأرسل فيه موسى، بل قبل زمن إبراهيم عليه السلام، ولم يعثر على كتابات أو آثار عبرية من تلك الأزمان المتقدمة بتاتا فقد وجدت سجلات مكتوبة

باللغة الصينية ترجع إلى قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، أي في حدود ١٥ ق.م، كما وجدت سجلات بالكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة قبل خمسة آلاف عام، أما أقدم سجلات مكتوبة ومعروفة حتى الآن فهي صور الكلمات السومرية المكتوبة قبل حوالي خمسة آلاف وخمسمائة عام، أي في حدود ٣٥ ق.م.

وعلى هذا الأساس؛وعلى أساس دراسات التشابه اللغوي والاشتقاقات اللغوية والصوتية في اللغات، وأسس علمية أخرى؛ يرى بعض علماء اللغات أن اللغة البابلية هي اللغة الأم للبشرية، وهي اللغة التي تكونت السومرية منها كما أن هناك افتراضات أخرى للغة الأم منها السريانية والعربية والراجح أن اللغة البابلية هي لغة الناس الأم بعد الطوفان، في حدود الألف الرابعة قبل الميلاد

اللغة العربية الفصحى:

تطورت اللغة العربية الحديثة عبر مئات السنين، وبعد مرور أكثر من ألفي سنة من ولادتها أصبحت قبيل الإسلام تسمى لغة مضر وتستخدم في شمال الجزيرة وقد قضت على اللغة العربية الشمالية القديمة وحلت محلها بينما كانت تسمى اللغة العربية الجنوبية القديمة (لغة حمير)، نسبة إلى أعظم ممالك اليمن حينذاك وما كاد النصف الأول للألفية الأولى للميلاد ينقضي حتى كانت هناك لقريش ولغة لربيعة ولغة لقضاعة، وهذه تسمى لغات وإن كانت مازالت في ذلك الطور لهجات فحسب، ويفهم كل

قوم غيرهم بسهولة، كما كانوا يفهمون لغة حمير أيضا وإن كان بشكل أقل وكان نزول القرآن في تلك الفترة هو الحدث العظيم الذي خلد إحدى لغات العرب حينذاك، وهي اللغة التي نزل بها والتي كانت أرقى لغات العرب وهي لغة قريش وسميت لغة قريش مذاك اللغة العربية الفصحى يقول الله تعالى في القرآن الكريم وكذلك أنزلناه حكما عربيا وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا، وهذا لسان عربي مبين.

تاريخ الأبجدية العربية

يظهر تاريخ الأبجدية العربية بأن أبجديتها مرت بفترات نمو منذ بداية نشأتها والاعتقاد السائد بأنها انبثقت من النبطية وربما هي إحدى فروع السريانية القادمة من الآرامية وهي من السلالة الأبجدية الفينيقية وقد ظهر منها الأبجدية العبرية والأبجدية الإغريقية، ومن الإغريقية ظهرت الأبجديات السريالية والرومانية وغيرها هناك أيضا كانت توجد الأبجدية العربية الجنوبية أوخط المسند والتي كانت تستخدم بكثرة في جنوب الجزيرة العربية وظهرت على النقوش الحميرية وقبلها السبئية في اليمن ويعتقد أيضا أنها اندثرت مع بداية ظهور الأبجدية النبطية وظهرت في جنوب الجزيرة العربية الكتابة العربية المعروفة بخط المسند مع ظهور مملكة سبأ قبل القرن العاشر قبل الميلاد ثم توقف استخدام هذا الخط مع القرن السابع الميلادي حيث كان لظهور العصر الإسلامي اثر

obeikandl.com

كبير في لفت الانتباه للكتابة العربية المكتوبة بلغة قريش والتي تطورت بدورها أيضا بعد تنقيحها ببعض النقاط والحركات المميزة هناك اعتقاد آخر بأن الأبجدية العربية ربما تطورت من النبطية أو من السريانية وهو التصور الأضعف الجدول التالي يظهر التطورات الخاضعة لشكل الأحرف من المنشأ الآرامي إلى الأشكال النبطية والسريانية وقد تم وضع العربية بالمنتصف للتوضيح ولكي لا يشير إلى التطور الزمني وإذا ما اخذ الاعتقاد بأن الأبجدية النبطية تحولت إلى العربية كما يلي:

- ما بين القرنين السادس والخامس ق م هاجرت القبائل السامية إلى الشمال وأنشئوا مملكة تمركزت حول بترا،الموجودة حاليا بالأردن ويسمى هؤلاء الناس بالأنباط نسبة إلى اسم قبيلتهم نبطو، ويعتقد بأنهم يتكلمون أحد أشكال اللغة العربية.
- فى القرن الثاني الميلادي تم تسجيل ظهور أولى أشكال الأبجدية النبطية المكتوبة داخل اللغة الآرامية والتي كانت لغة الاتصال والتجارة، ولكن كان بها بعض خصائص اللغة العربية فالأنباط لا يكتبون اللغة التي ينطقونها فهم يكتبون بأبجدية أرامية والتي هي طور التطور، وقد انقسمت إلى قسمين إحداهما أعدت للنقوش التي على النصب النبطية الضخمة،والأخرى للأحرف السلسة والمتصلة وللكتابة السريعة، والموجودة على أوراق البردي وقد أثرت تلك الكتابة السلسة على الكتابة الضخمة شيئا فشيئا حتى تحولت تدريجيا إلى الأبجدية العربية.